تفريغ محاضرة : السر الأعظم

إلقاء : م. عبدالله صالح العجيري

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

حديثنا اليوم وهو عن تماس مع أحد العبقريات الكبرى في تاريخنا الإسلامي، وهو علم إمام كبير من أئمة الاسلام: **ابن قيم الجوزية رحمه الله.**

ويكفي ليدرك الإنسان فضل هذا العالم ومقداره وموقعه في خريطة العلماء؛ أن الإمام الحافظ ابن حجر عليه رحمة الله لما أراد الثناء على ابن تيمية رحمه الله تعالى، قال في حق ابن تيمية:

"ولو لم يكن لابن تيمية منقبة وحسنة إلا تلميذه شمس الدين ابن قيم الجوزية، الذي طافت بمؤلفاته الركبان وتوافق عليه المخالف والمواقف لكفاه". وفي ذلك دلالة على منقبته وشرفه، ثم استرسل في الثناء على ابن تيمية.

وهذا أحد الجوانب في عبقريته ابن تيمية أن عبقرية ابن تيمية، لم تكن عبقرية ذاتية عبقرية ناشئة من مؤلفاته وكتبه فقط، بل جزء من عبقرية ابن تيمية وفي تخريجه لعبقريات أخرى.

عندنا ابن القيم، عندنا المفلح، عندنا عبد الهادي– قاضي الجبل– ، وكثير من أئمة الإسلام الذين خروجهم ابن تيمية رحمه الله رحمة الله عليه.

الحقيقة أن **ابن القيم الجوزية** يمثل بالنسبة لي على المستوى الشخصي مرحلة مفصلية في تاريخي العلمي، وهي لحظة ابتدأت في 1417 هجري. كان من عادتي عندما أذهب مع مجموعة من الزملاء والأحباء في تلك السنوات للحج اصطحب معي كتاب متعلق بأحكام المناسك وأحكام الحج. فأذكر اثنين من الكتب التي أحضرتها في تلك الفترة : كتاب شرح حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه وأرضاه للشيخ الألباني رحمه الله، ومن الكتب التي استحضرها الشرح الممتع للشيخ ابن عثيمين؛ تفسير الشيخ محمد الامين الشنقيطي لسورة الحج.

فصادف في 1417 أن الكتاب الذي استحضرته معي لمعرفة بعض أحكام المناسك كان الجزء المخصص في هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الحج من كتابه زاد المعاد المجلد الثاني

وابتدأت القراءة في هدي النبي في حجه، وفي أثناء الحج ختمت ما يتعلق بهديه صلى الله عليه وسلم في الحج، وبقيت بقية الكتاب و هو المجلد الثاني في هدي النبي، في الذكر، في الأسماء والكُنى وغيرها، قرأتها ولا زلت في الحج قراءات في المجلد الأول في الزكاة، وفرغت من الحج وفرغت من المجلد الثاني.

ووجدت في ابن القيم وفي كتابه شيئا جديدًا لم أتعرف عليه من قبل، وكان شيئا مطربًا للحقيقة.

أذكر أول ما رجعت استفتحت في المجلد الأول وكررت المجلد الثاني والثالث والرابع والخامس، ثم بدأت طريقي في قراءة المنتج الذي قدم عليه ابن القيم رحمه الله، ولم يمر تقريبا سنتين إلا واستطاع الإنسان أن يقرأ كل مؤلفات ابن القيم رحمه الله. وذكر انه بقيت رسالة لم تكن مطبوعة ولم تكن منتشرة انتشارا كبيرا، فبقيت عليّ رسالة صغيرة واحدة لابن القيم عنوانها: إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان. وكنت متألم متحسرا، كنت اريد ان اختم كل ما كتبه ابن القيم وبقيت هذه الرسالة. وأذكر اني كنت في المدينة ادور في مكتباتها، وفي اثناء مروري في أحد المكتبات وجدتُ إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان بتحليل العلامة جلال الدين القاسمي، وأذكر انني لم تختم تلك الليلة إلا وقد ختمت إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان، وبه ختمت كل ما يتعلق بمنتج ابن القيم.

وبعدها كان الانسان يعود النظر مرة بعد أخرى في منتجات ابن القيم، لم أكتفي بالقراءة الاولى.

والحقيقة، إذا استعرض الانسان مؤلفات ابن القيم يستطيع أن يصنفها إلى درجتين أو صنفين:

فيه الكتاب الأهم، والكتاب المهم.

وأنا أزعم ان الكتاب الذي سنتدارس فقرةً منه يمثل أحد المؤلفات المركزية في تراث ابن القيم، وهو: **مدارج السالكين** في شرح الكتاب الشهير لأبي اسماعيل هارون: منازل السائرين.

وهذا الكتاب الحقيقة –مدارج السالكين– له موقعه الخاص من النفس، مدارج السالكين حتى يصل إلى نوع من المغالاة في ما يتعلق بالكتاب أنني لم أكتفي فيه بطبعة واحدة. كانت الطبعة الاولى التي قرات الكتاب عليها طبعة رديئة، طبعة من دار العرب في ثلاث مجلدات فيها من الأغلاط والفظاعة. وشكلت هذه مع محبه الكتاب بحيث لم تكد تخرج طبعةً من الكتاب إلا أشعر بضرورة اقتنائها. واذكر انني اعدت اقتناء طبعه محمد حامد الفقي، ولعامر ياسين وغيرها ثم بحمد الله طبعت طبعه أنيقة عن دار عالم الفوائد من مشروع د. بكر أبو زيد رحمه الله عليه.

لماذا أذكر صلتي وعلاقتي بابن القيم ؟

الفكرة الأساسية التي أريد ان تتخيلوا أنني بحمد الله استعرضت منتج ابن القيم جميعا، وهذا المنتج منتج منبهر، وفيه من دقيق العلم ما لا يكاد يجده الإنسان عند غيره. بل ابن القيم نفسه استوعب هذه الحقيقة عن نفسه رحمه الله تعالى عليه، فخرج في بعض المواضع أن هذا الكلام لن تجده في مواضع أخرى.

ولما قرأ الإنسان كل ما يتعلق بكلام ابن القيم وأكرر النظر، وأكرر الكلام، تخرج فقرات معينة في كلام ابن القيم مطربة؛ قيمة وجميلة وحسنة. ودائمًا اعبر عن هذا المعنى في عدة مناسبات، أن أحلى وأجمل وأحلى كلام ابن القيم في نفسه، هو الكلام الذي سطره في **منزلة التوبة** تحت عنوان –سربت بعض مضامينه للإخوة– وهو بعنوان:

[السر الأعظم]

سيكون عندنا بإذن الله وقفة مطولة فيما يتعلق بحقيقة هذا السر، والذريعة التي من أجلها افترى على كلام بن القيم فيه فيما يتعلق بالسر الأعظم. وهو لون لا أخفيكم أنه هناك من الضغوط الإنسانية على النفس في حب المشاركة فيما يعجب الإنسان ويطربه. أنا أجد أن كثيرًا من الشباب إذا أعجبه فيلم معين، إذا أعجبه مؤلف؛ كتاب معين، يتمنى إن كل الناس تشارك في حاله المحبة وحاله الهيام، حالة الذوق الذي تذوقه من ذلك الكتاب.

لا أخفيكم أنني من مدة طويلة أتمنى أن أعقد مجلسًا وأشارك فيه إخوتي، هذا النص الجميل، النص البديع، النص المطرب، الذي كلما كررت النظر فيه يزيده مقامه في نفسي وأشعر أنني لم أكن مبالغًا لما انتخبت هذا النص وجعلته النص الأكثر إثارةً على المستوى الإنساني والمستوى الشخصي في نفسي.

وهذا النص من المهم جدا أن نستحضر ونحن نتدارسهُ ونتذكره، أنه متعلق بأحد أبواب العبوديات الضخمة في دين الإسلام، وهي عبودية للأسف الشديد يغفل عنها الكثير من المسلمين، ولا يستحضرون لما يطلق مفردة العبادة إلا مساحة معينة من العبادات، دون أن يقع في وهلهم هذه العبودية الكبيرة العظيمة، التي يُتعبد لله تبارك وتعالى بها، وذكر العلماء أنها من أعظم مقاصد تنزيل الوحي، وهي:

عبودية التعرف على الله سبحانه وتعالى. عبودية معرفة الله سبحانه وتعالى.

يعني بعض أهل العلم لما يأتي إلى قوله تعالى "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" ؛ ثم ترجع إلى كتب المفسرين، تجد أن كثير من العلماء فسر " **ليعبدُون** " أي: **ليعرفون**. فالله خلق الخلق ليُعرف تبارك وتعالى، فيُعبد تبارك وتعالى.

من أجمل أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي تمثل لحظة رجاء عند الآدميين، قوله صلى الله عليه وسلم:
" إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ".
العلماء اختلفوا اختلاف واسع في مدلول كلمة **الإحصاء**، ومن أجمل من استوعب الكلام في الإحصاء باختصار وحقق القول في مدلول الإحصاء: ابن القيم عليه رحمة الله تعالى في كتابه **بدائع الفوائد**.
فذكر أن مما يدخل ويندرج في مفهوم الإحصاء كل ما ذُكر فيها من المعاني.

⁂ فمما ذكر العلماء في مفهوم الإحصاء " من أحصاها" قالوا: **من حفظها**.
بل ورد في رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذات الحديث أنه قال: "من حفظها" بدل من كلمة من أحصاها. فتخيل! أنه مجرد تحفّظ أسماء الله كما يتحفظ الواحد منا السورة من القرآن، يعتبر عبادة عظيمة يحبها الله سبحانه وتعالى. يعني بمجرد أن يجلس الانسان وعنده قائمة بها أسماء الله عز وجل، فيسعى في تحفظها، أنه: الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن.. إلى بقية أسماء الله عز وجل. مجرد أن يستغرق الإنسان في محاولة حفظها، هذه عبادة لله عظيمة! بل هي عبادة يحتمل أن تكون مدخله للعبد إلى الجنة –كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم–.

⁂ درجه ثانية من الإحصاء، وهي : قضية **تفهم معانيها**.
أن الإنسان يأخذ كتاب معين، يشرح فيه المؤلف أسماء الله، هذه عبادة عظيمة! بمجردها، قد تكون سببًا موجبا في إدخال العبد إلى الجنة. لو أراد الإنسان أن يعمل اختبار مجموعة من المسلمين يسألهم عن أسماء الله تبارك وتعالى: ما معنى المتين من أسماء الله سبحانه؟ ما معنى المؤمن؟ ما معنى العزيز؟ .. قد لا تعجبنا النتائج. وبالتالي، يحتاج الإنسان أن يطلب تفسير أسماء الله تعالى.
والمعنى الذي يريد أن يشار إليه: **أن تطلّب تفسير أسماء الله هي عبادة**. عبادةٌ من جنس أن يركع الانسان ركعتين، أو يصوم شيئًا من الأيام، أو يتصدق. مجرد جلسة الإنسان وسعيه في تفهم أسماء الله تعالى هذه عبادة يحبها الله.

⁂ من مفاهيم الإحصاء كذلك التي ذكرها أهل العلم، قضية: **أن يعمل الإنسان بمقتضاها.**

فإذا علم الإنسان أن من أسماء الله عز وجل السميع؛ فلا يسمع منك سبحانه وتعالى كلمة لا تسره

فإذا علم الإنسان أن من أسماء الله عز وجل البصير، فلا يراك في مشهد لا يرضيه، وغير ذلك..

أن يعمل العبد بمقتضى أسماء الله عز وجل، وسوف يكون لنا وقفه فيما يتعلق بهذه القضية.

⁂ ويذكر أهل العلم كذلك من مدلولات الإحصاء:

أن يسعى الانسان في الاتصاف بما يليق بالعباد الاتصاف به من هذه الأسماء

النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من الأحاديث يرشد الى هذا المعنى، يعني مثلا لما يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

" إِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الإِحْسَانَ "

" إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيِيٌّ سَتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسِّتْرَ "

فكأن النبي صلى الله عليه وسلم يجعل مناط التخلق بهذه الاوصاف هو كونها كمالات متصلة بالله عز وجل، فما يليق به العبد أن يتصف به من هذه الكمالات؛ فيُشرَع في حق العبد أن يسعى في الاتصاف بها.

[هذه كلها مدلولات تندرج تحت مدلول الإحصاء.]

وما يهمني التذكير به والتنبيه، أن هذا الحديث يرشد أن من أعظم العبوديات التي يتعبد الله عز وجل بها،

هي: **عبودية معرفة الله سبحانه.**

ونفس هذه المعرفة مطلوبة لذاتها، يعني بعض الناس يتوهم أن باب معرفة الله عز وجل مقصود لغيره، بمعنى أنك إذا عرفت أن الله عز وجل متصف بكذا أو متصف بكذا، فإن ذلك يُثمر هذا المعنى في نفسي عبوديات معينة.

العلماء ينبهون أن المعنى أشد عمقًا..!

هذه المعرفة في حد ذاتها –كما نبهنا وبينّا- هي عبادة يحبها الله سبحانه وتعالى، ويُحب أن يعرف الرب تبارك وتعالى.

يقول **ابن القيم** مثلًا:

" فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو علم مطلوب لنفسه مراد لذاته"

والمفترض أن الإنسان بطبيعته السوية الإنسانية البشرية يكون محرَّكًا لتطلب معرفة الله تبارك وتعالى، حتى لو قدر أن الشريعة لم تأمر بمعرفته جل وعلا؛ لأن كل إنسان عندهُ أشبه بالجوعة في نفسه، هناك محرك الحاجة، الذي يحرك الإنسان صوب تطلب معرفة الله سبحانه وتعالى..

يقول ابن القيم:

" إنه لا حياة للقلوب ولا علم ولا لذة ولا سرور ولا أمان ولا طمأنينة؛ إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله"

فالمفترض أن هناك نوع من الجوعة، نوع من أنواع الحياة التي يتطلبها الانسان لنفسه –لو كان سوي النفس–، بل هنالك محرك أجمل وأرفع درجةً من هذا، وهو محرك الشوق إلى معرفة الله تعالى..

ولذا، من أكثر المشاهد البشرية الأكثر إيذاءَ على المستوى الإنساني الشخصي، هو موقف اللا اكتراثية..

يعني لما يتكلم الإنسان عن **المواقف العقدية المتعلقة بجناب الرب تبارك وتعالى وبجناب وجوده** عندنا :

- **موقف المؤمن المتدين**

الذي يؤمن بوجود الله عز وجل ويعتقد بصحة دينه، وأنهُ يجب أن يتعبد الله تعالى به.

- **وهناك الموقف الربوبي**

الذي يؤمن بأن هناك رب خلق العالم، لكن هذا الرب خلق العالم وتركه.

- **وهناك الموقف اللا أدري**

الذي لا يقدم جوابًا على سؤال " هل الله موجود " بالسلب أو الإيجاب، فهو متردد حائر بين الطرفين..

يعتقد أن هناك أدلة متساوية من الضفتين، ويعتقد أن العقل البشري عاجزٌ عن تقديم جواب على هذا السؤال.

- ثم هناك عندنا **الملحد الصلب**

الملحد الإيجاب، الملحد الذي يعتقد بعدم وجود الرب

هذه المواقف، بالنسبة لي عقليًا –مع استبشاعي بطبيعة الحال لبعضها– لكنها مُتفهمة مُتعقّلة، لكن الموقف الذي لا أستطيع تفهم دوافع صاحبه هو الموقف اللا اكتراثي!
الموقف الغير مكترث أصلا بالسؤال عن وجود الله وعدمه..

تخيلوا أن هناك أناس وبشر لما تعرض عليه دعوتك وتخاطبه، وخاطبتُ بعضهم، الموقف الذي يختاره لنفسه في هذا السؤال –سؤال وجود الله– : أنني غير عابئٍ بالسؤال أصلًا، غير مكترثٍ به!
وهذه الحالة من حالات انتزاع الإنسان إنسانيته من نفسه إلى مرحلة أُقيمها أنها أشد انحطاطًا من أحوال البهائم التي تعرف الله تبارك وتعالى.
ولذا؛ من المفترض أصلًا في الإنسان:
ألا يكون هناك بابٌ يشتاق الإنسان لمعرفته **أكثر من تطلب معرفة الرب تبارك وتعالى**..
يعني المفترض أن يكون الانسان محركًا بمجرد الاحتمال، إن كان هناك احتمال لوجود الله عز وجل، فأعظم سؤال إنساني بشرى هو سؤال: ما مواصفات هذا الرب الذي خلقني وخلق هذا العالم، وخلق هذا الوجود الذي حولي؟

يقول **ابن تيمية**:
" وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر "
لا شيء مفترض أن يكون محرك الشوق للإنسان أن يتعرف عليه أكثر من اشتياقه معرفة الرب تبارك وتعالى.

يقول أيضًا:
" من كان في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم ، أو نهمة في العبادة ، يكون البحث في هذا الباب ، والسؤال عنه ، ومعرفة الحق فيه ، أكبر مقاصده وأعظم مطالبه "
بمجرد أدني حياةٍ تنعقد في نفس الانسان، فيجب أن يكون هذا الباب ورقم واحد في سلم أولوياته، الذي هو باب تطلب معرفة الله سبحانهُ وتعالى.

ولذا، هذا الباب متى ما انفتح في النفس على الوجه الذي يُرضى الله عز وجل ويتطلبه منا، فكل خير سينقدح في عبودية الإنسان، وسيثمر أعظم بركة في حياة الانسان.

ولما نتكلم عن معرفة الله عز وجل لا نتكلم عن مستوى معلوماتي فقط، بل نحن نتكلم عن مستوى معرفة يُحقق للإنسان رقيًا في منازل التذلل والتعبد والمحبة له تبارك وتعالى.

ولذا أحد القضايا التي تحتاج إلى مُراجعة في درسنا العقدي، الذي هو طبيعة ارتباط معرفة الله عز وجل في طبيعة الدرس العقدي، وما يتطلبه الله منا من مظاهر العبودية عند دراسة هذه المعاني.

يعني من المؤسف أحيانا أنه إذا ذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم مثلًا:
" ينزل رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ .. " الحديث المعروف ..
من المؤلم أن يكون قصارى ما ينقدح في ذهن الإنسان لما يقرأ هذا الحديث ما يتعلق بالجدليات والسجالات المتعلقة بقضية نزول الرب إلى السماء الدنيا، وما يتعلق بين مدرسة التمثيل، والتعطيل، ومدرسة أهل السنة والجماعة، وكيفية دفع الاعتراضات المتعلقة بهذه القضية، من غير أن يستحضر الإنسان أن **باعث النبي صلى الله عليه وسلم وغرضه وحكمته الأساسية لما حدث أصحابه بمثل هذه الأحاديث هو: انتزاع تلك العبودية التي ذكرها النبي –صلى الله عليه وسلم–** ؛أن يقوم الإنسان قائمًا لله عز وجل، يستغفر الله عز وجل، سائلًا الله سبحانه وتعالى.

لما يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور، لما يقول:
" وإن أتاني يمشي أتيته هرولة "
وتجد أن هناك جدل في ما يتعلق في إثبات الهرولة لله عز وجل وعدم إثباتها، من غير أن ينقدح في النفس المعنى الأساسي الذي من أجله أورد النبي صلى الله عليه وسلم مثل هذا الحديث..
يعني لما يعقد انسان مقارنة بين أحوالنا في تلقي النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحوال الصحابة، وكيف كان أثر هذه النصوص على نفسيات الصحابة أو كيف كانت تقدح فيهم من مظاهر الإيمان العجيبة..

يعني أولًا:
الصحابة كان عندهم إدراك عميق جدا أن أشرف المباحث العلمية على الإطلاق هو **بناء معرفة الله عز وجل**..
كانت هذه القضية واضحه تماما في أذهانهم. و لذا؛ من أكثر المظاهر التي يستطيع الإنسان أن يدرس من خلاله مظاهر عبقرية صحابة النبي صلى الله عليه وسلم العلمية، هذا السؤال النبوي الذي ورد على أحد أصحابه وهو **أبي بن كعب**، لما سأله النبي صلى الله عليه وسلم : " أي آية في كتاب الله أعظم ؟! "

ترى هذا السؤال بحكم معرفتنا بهذا الحديث، سهل علينا أن نقول آية الكرسي، لكن تخيلوا يا جماعة لو ما ورد هذا الحديث عن النبي، وصارت هذه المسألة من جنس المسائل الذي يختلف فيها أهل العلم، مثل: أي آيةٍ أرجي في كتاب الله؟ أو أي آية أخوف في كتاب الله عز وجل؟ سيصعب علينا جدا أن ندرك ما الآية الأكثر عظمةً في النص القرآني..!

سيكون ذلك صعباً، نحن نتحدث عن أكثر من ستة آلاف آية، كيف يستطيع الانسان أن يرتب تلك الآيات القرآنية ويدرك وجه العظمة الموجودة في أحد تلك الآيات دون بقية الآيات؟!
يعني كان من المحتمل أن يفكر الإنسان في ضوء معيار معين:

- فيقول مثلاً : **المعيار البلاغي**، كما هو مثلا في قصة نوح عليه السلام في قوله تعالى "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي" فهي جميلة جدا من الناحية البلاغية، أو قوله "وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ" كما في قصة يعقوب، أو الكثير من الدلائل البلاغية..
- أو مثلًا: من جهة **الأحكام التشريعية المفصلة**، مثل ما يتعلق بآية الدين.

لكن **أبي بن كعب** لما سُئل – من غير كثرة تفكير– ضيّق دائرة ما يتعلق بأعظم آية في كتاب الله في **باب معرفة الله عز وجل**، فكانت القضية واضحة لديه تماماً، أن الآية الأعظم في كتاب الله عز وجل يجب أن تكون **آية متعلقة بتعريف الخالق للخلق!**
الآن، ضاقت الدائرة وبدأ ينظر سريعاً فيما يتعلق بهذا النمط من الآيات، فوضع يده مباشرة على الآية، آية الكرسي، اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.. فضرب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: " ليهنك العلم أبا المنذر."

تخيلوا فرحة النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الصحابي لما عرف الإجابة الصحيحة!
ولذا، عندما نتكلم عن فهم الصحابة أو فهم سلف الأمة الصالح للنصوص الشرعية، فنحن نتحدث عن عدة مستويات تجعل من العقلاني اتباعهم في مواقفهم..
فهم من شهد التنزيل، وعندهم معدن العربية، وعندهم من الإيمان ما يجعلهم متشوقين لمعرفة حقائق هذا الدين وحقائق الوحي، عندهم من الورع ما يحملهم على تطلب الحق، وغيرها من المعاني..
لكن من المعاني اللطيفة الجميلة وهي: **إقرار المعلم لتلاميذه، وفرح المعلم بدقة فهم التلميذ**، وهو مشهد جميل جدًا

تخيلوا..

كما نعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته أشيعت عنه شائعات متعددة، كساحر وجنون وشاعر وغيرها من هذه الأشياء..

أحد الصحابة -قبل أن يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم- دخل مكة، فسمع بإحدى هذه الشائعات، أن النبي صلى الله عليه وسلم مجنون، فاستشعر نوعاً من أنواع الخدمة البشرية الإنسانية، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى يعرض خدماته، فخاطبه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو **ضماد بن ثعلبة،** وتخيلوا مخاطبة أعقل البشرية وأذكاهم وأفذهم عبقرية وتأييداً بالوحي..

فقال ضماد للنبي : " إني رجل أرقي من هذه الريح.. "

أي إن كنت مجنون فأنا عندي علاج استطيع أن أقدم لك رقى معينة وأعالجك،

فمن الرحمة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يغضب، ولم يستطل عليه، ولم يتعرض له بشيء،

بل قال النبي صلى الله عليه وسلم: " اسمع مني "

ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم:

" إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد.. "

ذُهل الصحابي لما سمع ما نعبر عنه الآن بخطبة الحاج، فمن الواضح تماما دعوياً أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما قدم بهذه المقدمة ليقول أما بعد، ثم يليه الخطاب الدعوي الذي يريد الوصول إليه،

لكن ضماد بن ثعلبة من ذهوله قال: " أعد عليّ هؤلاء الكلمات.. "

فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الحمد لله .. " الخطبة، أما بعد،

قال : " أعد عليّ هؤلاء الكلمات.. " ، فأعاد الثالثة،

فقال ضماد: " أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.. "

فلم يحتج أن يقدم له الخطاب الدعوي التالي.. هذا التعظيم للرب تبارك وتعالى، هذا التعريف لله عز وجل المتضمن في هذه الخطبة، هو أمارة صدق هذا الرجل الذي يخاطبني ويحدثني فدخل في دين الله عز وجل..!

تخيلوا أعرابي لا نعرف اسمه، يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

"يضحك الله من قنوط عباده، وقرب غيثه، ويعلم أن فرجهم قريب"

[**الحديث نصًا وغير مذكور بالمحاضرة** : (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَضْحَكُ مِنْ إِيَاسَةِ الْعِبَادِ وَقُنُوطِهِمْ ، وَقُرْبِهِ مِنْهُمْ) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَوَ يَضْحَكُ رَبُّنَا؟ قَالَ: (أَيْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّهُ لَيَضْحَكُ)، قَالَ: فَقُلْتُ إِذًا لَا يَعْدِمُنَا مِنْهُ خَيْرًا إِذَا ضَحِكَ "]

يكون الناس قانطين بسبب القحط فيضحك الله عز وجل، لماذا؟ لأنه يعلم أن فرجهم قريب،

أي أنهم بلغوا من حالة اليأس والله عز وجل يعلم أن المبشرات والتفاؤل قاب قوسين أو أدنى، يعلم أن فرجهم قريب..

تخيلوا الالتقاطة العجيبة التي التقطها هذا الأعرابي من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم –الذي لا نعرف اسمه– قال :

"أو يضحك ربنا؟ " يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم (أوَ يضحك ربنا؟!)

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: نعم

قال : لن نعدم الخير وربنا يضحك..

لاحظوا المعنى الإيماني الجميل جدا وهذا الذوق العجيب، لاحظوا هذا المعنى الذي انقدح في نفسه،

هل هو ذات المعنى الذي ينقدح في نفوسنا عندما نسمع مثل هذا الحديث؟

عندما يستحضر الإنسان أن من صفات الله عز وجل الفرح والرحمة والضحكة، أننا لن نعدم الخير من هذا الرب سبحانه وتعالى..

يقول **العز بن عبد السلام**:

" فهم معاني أسماء الله وسيلة إلى معاملته بثمراتها من: الخوف، والرجاء، والمهابة، والمحبة، والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات."

ويقول **ابن القيم**:

" فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الربّ تعالى في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيمّاً وإجلالاً "

مراتب الناس في العبودية لله عزّ وجل، بحسب ما ينقدحُ في نفوسهم من باب معرفة الله تبارك وتعالى.

أكثر الناس معرفةً لله سبحانهُ وتعالى، هُم أشدّ الناس عبادةً لهُ سبحانهُ وتعالى.

وموازين العبادة في لُبها وجوهرها وحقيقتها، إنما ترتفعُ وتنخفضُ بحسب ما ينقدحُ من معاني الإيمان بالله سبحانهُ وتعالى مما يقعُ في القلُوب.

وراجعُوا العبادات الظاهرة،

يعني ما علاقة بين طبيعة الصلة والعلاقة بين عبودية الصيام، وبين معرفة الله سبحانهُ وتعالى؟!

راجعُوا ما يتعلق بقضية **الاستخارة** مثلًا، يعني شاهدُوا جمال دعاء الاستخارة..

" اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب.. "

لاحظ مظاهر الافتقار، مظاهر التذلل، مظاهر المعرفة بالله سبحانه وتعالى؛ لأن الله عزّ وجل كاملٌ في علمه سبحانهُ وتعالى، كاملٌ في قدرته تبارك وتعالى، فالذي يختارهُ الرب سبحانه وتعالى، ويقدره لي، فالخيرُ كله فيه..

وقسْها على بقية العبادات.

يعني، المحرك الحقيقي لإحياء عبُودية **الدعاء** مثلًا في النفس هُو: إدراك أن هُناك ربٌ يسمعُ الدعاء، ويستجيبٌ للدعاء ونحنُ نقولُ هذا **في صلواتنا**..

يعني لما يقولُ الإمام: **سمع اللهُ لمن حمده**

ترى، أشبه بأن نُذكر نفسنا بأن عزّ وجل يسمع، وأن من مفاهيم سماعه سُبحانهُ وتعالى: إجابة الله عزّ وجل.

أنهُ لا يسمعُ سماعًا مُجردًا، بل يسمعُ للعباد، فيستجيبُ لهُم تبارك وتعالى.

إذا تحقق هذا المعنى في النفس، ترى هذا الذي ينتزعُ من النفس صدق تطلب الدعاء له.

شاهدوا هذه العبارة العجيبة التي ذكرها ابن القيم في بدائع الفوائد وهُو يتكلمُ عن أحوال بعض العُبّاد في منزلة الصلاة، في مقام التعبُّد لله عزّ وجل **بالصلاة**، وتأملوا في هذه المظاهر المبهجة والمفرحة والعجيبة جدًا من الترقّي الإيماني..

ستجد أن القضية كُلها مرتبطة **بمعرفة أولئك لربهم تبارك وتعالى**، واستحضارهم في صلواتهم **معانٍ مُتعلقة بمعرفة الرب**، هي التي تُسبب لنا لونًا من ألوان الاضطراب وعدم تحقق مظاهر الخشوع والخشية لله سبحانه وتعالى في صلوات على الوجه الذي يليق به تبارك وتعالى.

يعني بالله عليكم، لو الواحد منّا استحضر في صلاته حديث أبي هريرة رضي الله عنهُ وأرضاهُ مثلًا في أوّل صلاته..

يعني يستحضر أن الإنسان إذا كبّر في صلاته وقال: الله أكبر

فإن الله عزّ وجل ينصبُ وجهه تلقاء عبده.!

ويقولُ النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: " قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي.."

تخيل لو الإنسان يستشعر في صلاته هذه المحاورة الثنائية بينهُ وبين الله سبحانهُ وتعالى!

فإذا قال، يعني الإنسان: " الحمدُ لله رب العالمين "

قال الله: حمدني عبدي!

تخيل لو أنك تستحضر هذا المعنى في أثناء الصلاة!

لما قلتَ " الحمدُ لله رب العالمين" شعرتَ بنوعٍ من أنواع السكينة والوقفة والشعور الحقيقي الصادق، بأنّ الله عزّ وجل الآن يُجيبك ويقول: حمدني عبدي..

فإذا قُلتَ: " الرحمن الرحيم "

قال: أثنى عليّ عبدي.

فإذا قُلتَ: " مالك يوم الدين "

قال: مجّدني عبدي.

فإذا قُلتَ: " إياك نعبدُ وإياك نستعين "

قال: هذا بيني وبين عبدي

فإذا قُلتَ: " اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضُوب عليهم ولا الضّالين "

قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل.

ما موقع قراءة سورة الفاتحة في صلاة الإنسان لو استحضر هذا المعنى ؟!

وارجعُوا إلى كلام ابن القيم..

ترى ابن القيم في كتابٍ له، جميل جدًا، اسمهُ: حكم تارك الصلاة

بحث مسائل فقهية مُتعلقة وعقدية بقضية ترك الصلاة،

لكن من أمتع المباحث السلوكية العلمية الإيمانية في هذا الكتاب: منازل العبُودية في كلّ موقفٍ من مواقف الصلاة، وربطها بباب معرفة الله عزّ وجل..

بدءًا من تحضيرات ما قبل الصلاة، ثم بتكبيرة الإحرام، دعاء الاستفتاح، قراءة الفاتحة، قراءة سورة، التكبير للركوع، الركوع، ...

وغيرها من مظاهر معرفة الله عزّ وجل واقترانها بحالة الصلاة

لكن يقول ابن القيم في بدائع الفوائد:

"لو أحببتَ المحبُوب؛ لحضر قلبُك في عبادته "

هذه الآن فائدة يذكرها ابن القيم، منبهًا على هذا المعنى السلوكي الإيماني الرفيع..

قيل ل**عامر بن عبد قيس**: أما تسهو في صلاتك ؟

قال: " أوَ حديثٌ أحب إليّ من القرآن حتى أشتغل به؟! "

وكان **مسلم بن يسار** لا يلتفت في صلاته، حتى انهدمت ناحية من نواحي المسجد؛ فزع لها من في السوق، وما التفت..!

وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته، يعني كان إذا دخل هذا الرجل مسلم بن يسار بيته، سكت من بالبيت خوفًا وهيبةً منه..

يقول: " فإذا قلم يصلي تكلموا وضحكوا، علمًا منهم بالغيبة "

يعني إذا دخل في الصلاة، أدركوا أنه غاب في الصلاة عن دنيا الناس بربه تبارك وتعالى..

وقيل،

تخيلوا معي بهذه العبارة العجيبة صراحة:

" وقيل لبعضهم إنا لنوسوس في صلاتنا.. "

الآن، عُرض هذا السؤال على أحد العُبّاد، يلحق بالإنسان نوع من أنواع الوسوسة في الصلاة

تخيلوا جواب العابد الطريف جدًا، ماذا قال؟

قال: " بأيّ شيء؟ بالجنة أو الحور العين والقيامة؟ "

توهّم أن الوسوسة الواقعة هي في شأن تعبُدي !

يعني وسوسته، غفلته عن الله عزّ وجل، فاشتغل ممكن الواحد يفكر في الجنة، يفكر في أحوال القيامة،..

فقالوا: " لا، بل الدنيا.. "

فقال: " لأن تختلف فيّ الأسنّةُ أحبّ إليّ من ذلك!

تقفُ في صلاتك بجسدك وقد وجهتَ وجهك إلى القبلة، ووجهتَ قلبك إلى قطرٍ آخر؟!"

أنت من المفترض أنك الآن موجّه قلبك لله عزّ وجل، وأنت متشاغل في صلاتك وأنت بين يدي الله عزّ وجل بغيره سبحانه وتعالى؟!

قال: " **ويحك! ما تصلحُ هذه الصلاةُ مهرًا للجنة! فكيف تصلحُ ثمنًا للمحبة؟!**"

أي هذه الصلاة لا تصلح مهرًا للجنة، فكيف تصلحُ ثمنًا لمحبة الله عزّ وجل لك؟

بعدها، أتى **ابن القيم** بهذه الالتقاطة الطريفة؛ قال ابن القيم:

" رأت فأرةٌ جملًا، فأعجبها، فجرّت خطامهُ، فتبعها..(الآن فأرة شافت جمل، أخذت بخطام الجمل وأخذت تجرها)

فلما وصلت إلى باب بيتها وقف (يعني كأنه الجمل) فنادى بلسان الحال:

إما أن تتخذي دارًا تليق بمحبوبك، أو محبوبًا يليق بدارك.. "

[لما وصلوا إلى باب دار الفأرة، قال: إما أن تتخذ دارًا، أو تتخذي محبوبًا بحجم كي يدخل معك الدار]

وهكذا أنت..!

إما أن تصلي صلاةً تليق بمعبودك، وإما أن تتخذ معبودا يليق بصلاتك ".

لاحظوا طبيعة الذوق..

وليس الذوق فقط، وهذا سنشير إليه لاحقًا بعد قليل،

طبيعة ذوق الأئمة لما يتعلق بهذه الأبواب، وطبيعة حُسن تأتّيهم وتعبيرهم عن هذه المعاني..

والنص الذي سنقف معه بإذن الله من كلام ابن القيم ترى أمارةً وعلامةً عما أتكلم عنهُ..

يعني **حماد بن سلمة**، خذُوا مراتب ذوق الأئمة، يعني كيف يتذوقون المعاني الإيمانية المتعلقة بمعرفة الله سبحانه وتعالى..

حماد بن سلمة، من العبارات العجيبة التي مرت عليّ من تعبيراته، وهو معنًى لا أحسبُ أنهُ ينقدحُ في نفوس كثيرٍ من المسلمين، مع معرفتنا وحفظنا لقول النبي صلى الله عليه وسلم " لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها "

أجلى مظهر لمظاهر الرحمة في الإنسانية والبشرية! رحمة الأم بأولادها!

يقول **حماد بن سلمة** :

" لو خيرت يوم القيامة من يحاسبني؛ ربي أو أبويّ، لاخترت ربي؛ لأني أعلمُ أن ربي أرحمُ بي من أبويّ. "

كم من الناس، لو وقع في مثل هذا السؤال أجاب مثل هذا الجواب؟!

والمظنُون بمثل حماد بن سلمة أنهُ ليس كاذبًا..

هُو يتذوّق معنى رحمة الله عزّ وجل، هذا الذوق الرفيع.. فيُحسن بعد ذلك أن يبني لنفسه من منازل العبُودية ما لا يُحسن.

يعني خذُوا مثال **ابن تيمية**، شاهد ماذا يقُول في قضية التذوق:

" والإنسان في الدنيا يجد في قلبه بذكر الله وذكر محامده وآلائه وعباداته من اللذة ما لا يجده في شيء آخر "

فهذه أحوال الأئمة،

يعني هي الرتبة الأولى في باب معرفة الله عزّ وجل أن يكون الإنسان ذواقًا لما يتعلق بهذه المعارف..

والامتياز الثاني الذي يتحقق للأئمة بعد تذوقهم هذه المعاني: **حُسن تعبيرهم وإيصالهم لهذا الذوق لغيرهم**.

يعني خُذوا هذه الالتقاطة التي ذكرها **ابن القيم** –رحمة الله عليه– :

" إذا كانت مشاهدة مخلوق [يوسف – عليه السلام –] يوم أخرج عليهن استغرقت إحساس الناظرات فقطعن أيديهن وما شعرن، فكيف بالحال يوم المزيد؟! "

لاحظ حُسن التعبير عن هذا المعنى..!

ترى نحن جميعًا نعرف أن المؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى في الجنة، ونعرف كُلنا أن من أعظم النعيم الذي يُضفيه الله عز وجل على العباد هو رؤيتهُ تبارك وتعالى في الجنة..

لكن من منّا ربط بين قصة يُوسف عليه السلام، وإن إذا كان المخلوق خلق حالًا من الغيبة والفناء به عن النفس، بحيث قطعت تلك النسوة أيديهن؟!

يقُول **ابن القيم**: " فكيف بالحال يوم المزيد؟!"

ترى هذه رُتبة من تذوق معنى رؤية الله سبحانه وتعالى، ثُم حُسن تصوير وتأدية هذا المعنى بهذا الأسلُوب الرفيع..

والوقفة التي سنتوقفها مع كلام ابن القيم مؤكدٌ لي هذا القضية، نُنبه عليها..

ولذا، من المعاني التي أشرنا إليها قبل قليل، أن أحوال الخلق إنما يقعُ بينهم التفاوت حقيقةً في مراتب العبودية والإيمان بحسب معرفتهم لله سبحانه وتعالى.

ولذا، **يقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم**: (وتأملوا في الحديث الجميل)

" إني لأعلمكم بالله –وفي رواية: لأعرفكم بالله– وأشدكم له خشية "

هذا الحديث جماليتهُ في عدة جوانب؛ من الجوانب الجميلة جدًا في هذا الحديث:

أن باب معرفة الله سُبحانه وتعالى هُو من الأبواب التي تقبلُ التفاوُت. هُو ليس رُتبةً واحدة. النبي صلى الله عليه وسلم استخدم صيغة أفعل التفضيل، في باب معرفته سبحانهُ وتعالى، وبالتالي، يُمكن للإنسان أن يتطلب من مقامات معرفة الله سبحانه وتعالى رتبةً ودرجةً أرفعً من المقام الذي هو فيه..

أرفعً من المقام الذي هو فيه.!

وسنذكر بعد قليل، بعض ما يتعلق ببعض الأدوات وبعض التقنيات وبعض الوسائل فيما يتطلب في معرفة الله سبحانهُ وتعالى.

يقول **ابن القيم**:

" من عرف الله أحبهُ على قدر معرفته به "

وهذا المعنى الثاني؛ **أن هُنالك تلازم بين أبواب الإيمان والعبودية التي يبذلُها العبد لله سبحانهُ وتعالى، بحسب ما ينقدحُ في نفسه حقيقةً من معرفته جلّ وعلا.**

يقُول:

" ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به، وخافه، ورجاه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ولهج بذكره، واشتاق إلى لقائه، واستحيا منه، وأجلّه، وعظمه على قدر معرفته به. "

كل العبُوديات القلبية وما تُثمرهُ من عبودياتٍ ظاهرة، ترى مرجعها في الحقيقة إلى: معرفة الله سبحانه وتعالى.

يقول **ابن تيمية**:

" إن الأنبياء والمرسلين، عرفوا الله بالوحي المعرفة التي هي المعرفة،

وعبدُوه بالعبادة التي هي حقٌ لهُ بحسب ما منحهُم الله تعالى. "

فلاحظ الآن، ابن تيمية يصرّح لك في هذا النص بأن رُتبة الأنبياء والمرسلين، والفضيلة التي أسبغها الله عزّ وجل عليهم، إنما تأتّت لهم بحسب ما أعطاهم الله سبحانه من أبواب معرفته تبارك وتعالى.

ويقول:

" من عرف أسماء الله ومعانيها، فآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيمانًا مجملًا "

ولما تكلمنا عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم: " من أحصاها.. " هذا يكشف لك.!

ابن تيمية يُنبهك، يقول لك أن الذي يؤمن بالله عزّ وجل وكمالاته إجمالًا، لهُ رتبةٌ من الإيمان دون رتبة من سعى في معرفة الله عز وجل على جهة التفصيل.

ولذا، لاحظوا قول الله سبحانه وتعالى: " إنما يخشى الله من عباده العلماء "..

والعلماء يتحدثون أن المقصود هم **العلماء به** تبارك وتعالى..

فالعلماء به هم أشد الناس خشيةً لله عز وجل، رجاءً فيه سبحانهُ وتعالى، محبةً لهُ، جل وعلا..

ولذا، المعنى الذي أشار له **ابن تيمية**:

" إن الأنبياء والمرسلين، عرفوا الله بالوحي المعرفة التي هي المعرفة.."

تتجلى في كُل قصص الأنبياء والرسل!

وتدبروه وتأملوه من هذه الزاوية..

يعني تأملوا كيف كانت معرفةُ الله عزّ وجل تحرك الأنبياء والرسل لاتخاذ مواقف تتبدى للناظر للوهلة الأولى نشازًا وخارجةً عن جنس ممارسات البشر والإنسانية.!

تخيلوا **موسى عليه السلام**..

يعني خذُوا هذه الالتقاطة التي رصدها الله عزّ وجل فِي القرآن الكريم، تأريخًا نتلوهُ إلى يوم القيامة..

يقول الله عزّ وجل:

" فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ .."

تخيل الآن..

موسى وقومه يهربون من فرعون مصر، ثم يُدركهم فرعون بالجيش وهم عند البحر، الجيش من وراءهم والبحرُ من أمامهم

يقولُ الله عزّ وجل:

" فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ "

أي: مُحاطٌ بنا..

فقال موسى عليه الصلاة والسلام إيش؟

"قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ "

العجيب فِي الآية هذه بالنسبة إليّ هُو حجم استحضار موسى عليه السلام لمقُولة الرب تبارك وتعالى لهُ في أول دعوته، في الخطاب الأول، لما قال الله عزّ وجل له إيش؟

"قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ "

وُمستحضر هذا المشهد طيلة دعوته إلى هذه اللحظة، لحظة الصفر..

" فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ

قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ "

يفترض الإنسان.. أذكر أول مرة قرأت الآية خطر في وهلي أن احتمال أن موسى بوحي الله عزّ وجل له مشروحة لهُ الخطة بالتفصيل، يعني مكشوف ما سيفعل الله عزّ وجل لهُ من النصر والتأييد..

لكن العجيب أنك لما تقرأ الآية التالية :

" فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ.."

الفاء: تفيد التعقيب المباشر..

لاحظ رحمة الله عزّ وجل لما يصدق الإنسان في معرفته سبحانه وتعالى تأتيه الرحمة مُباشرةً

وهذه الفاء تكشف أن الخطة لم تكن مكشوفة،

ما كان موسى يدري كيف سينصرهُ الله عزّ وجل!

لكنّ، الطمأنينة، السكينة، الثقة، تفويض الأمر، التوكل على الله عزّ وجل..

المبنية على: استشعار معيّة الله سبحانه وتعالى له..

"قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ "

فماذا فعل الله عزّ وجل؟

" فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العظِيم "

العجيب سبحان الله، لما يسترسل الإنسان في قراءة قصة موسى، ولاحظوا كمال رحمة الله عزّ وجل

وأن ما يفوقُ به الرب سبحانه وتعالى، حتى ما يخطُر في مخيال العباد..!

موسى عليه السلام، لما أمره الله عزّ وجل بضرب البحر، وانفلق البحر، وسار بقومه،

كان متوهمًا أن غاية نصرة الله عزّ وجل له، ماذا؟

أن ينجيه الله عزّ وجل وقومه من فرعون وقومه!

سبحان الله، ماذا كان ناوي موسى عليه الصلاة والسلام يسوي؟

لما يوصل للضفة الثانية ومعه العصا، كان ينوي يضرب البحر مرة ثانية، لماذا؟

على أساس يرجع البحر وينطبق؛ ليعزل بينهُ وبين فرعون

ترى هذا غاية أماني موسى عليه السلام في هذه اللحظة..!

فقال الله عزّ وجل لهُ مخاطبًا، ماذا؟

" واتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ "

يأمره الله عزّ وجل:

اترك البحر على حاله، اتركه، لا تضرب العصا ليرجع البحر، لا لا، اترك البحر كما هو..

لماذا؟

حتى يدخل قوم فرعون فيشفي الله بذلك المشهد صدور قوم مؤمنين.

فلاحظ..

موسى عليه السلام، بكمال معرفته لله سبحانه وتعالى، ما كان يخطر حتى في مخياله إن الموضوع يبلغ المدى الذي أرادهُ الله سبحانه وتعالى.

من الضروري جدا أن يستحضر الانسان عندما يقرأ مثل هذه النصوص والأحاديث السياق الزمني للأحداث وأن يغمس نفسه في التاريخ.

فعندما يقرأ الواحدُ منا **قصة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم**، وكيف وصل النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبو بكر إلى غار ثور، ويخاطبه الصديق رضي الله عنه وأرضاه فيقول له:

(يا رسول الله، والله لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا)

أنا عندما أقرأ هذا النص – لا أخفي عليكم – أحاول استشعر لو قُدّر أن يحدث حالة من الاضطراب الأمني مثلًا، أو دخل علي شخص مجرم في بيتي، يحمل مسدس أو ساطور ليقتلني، وحاولت أن أهرب فدخلت في دولاب أو اختبأت أسفل السرير، ما هي حالة الذعر والخوف التي تنتاب الإنسان، كيف هي أنفاسه وكيف هي نبضات قلبه؟!!

نحن نتحدث عن قول أبو بكر لو شخص منهم فقط أخفض رأسه ونظر لرآنا، وجزء من خوف الصديق رضي الله عنه وأرضاه على صاحبه، وأنت الآن لا تتكلم عن آذى بسيط سيطال الرسول صلى الله عليه وسلم، فالنبي صلى الله

عليه وسلم قد خرج مهاجراً بعد محاولة اغتياله، فهم ينوون قتله. ليست القضية أنهم سيعيدون اصطحابه إلى مكة، وإن لم تنجح هذه الخطة فمن الممكن أن نكررها مرة أخرى، لا، كان الاحتمال عالياً..

ومع ذلك، لم يخبر الله سبحانه وتعالى النبي صلى الله عليه وسلم بتفصيل طريقة النجاة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان عنده ثقة وطمأنينة بمعية الله عز وجل كحال صاحبه موسى فقال (ما ظنك يا أبو بكر باثنين الله ثالثهما؟) يخاطبه بهذه الطمأنينة والثقة، فلماذا الخوف والله عز وجل معنا؟

والله عز وجل يصدق هذا في القرآن الكريم في الآيات المشهورة المتعلقة بهذا المقام، فهذه المقامات مقامات الأنبياء ومقامات الرسل، وهو مقام يكشف لنا ضرورة أن نعمق فهمنا بما يتعلق بهذه الأبواب..

أجمل ما في النص الذي سنقرأه بعد قليل بإذن الله عز وجل أنها أشبه بورشة تدريبية في كيفية السعي لتطلب معرفة الله سبحانه وتعالى، وأن هنالك **مستويات** لمعرفة الله سبحانه وتعالى قد لا تنقذف في نفوسنا للوهلة الأولى، فأنا لا أحصي عدد ما سمعته من التذكير وربط عبودياتنا بسمع الله عز وجل وبصره وعلمه..

مثلاً، في قضية: أن الله عز وجل **من أسمائه السميع ومن صفاته عز وجل السمع**
فلا يسمع منك كلمة نابية، لا يسمع منك ما يسخطه تبارك وتعالى، لا يسمع منك الكذب ولا يسمع منك الغيبة لا يسمع منك النميمة..
هذا معنى لا أحصي تكراره على سمعي، لكن ما أذكر أنه مر علي قط أحد نبه عن الجانب المشرق المتفائل الذي يبعثه هذا الاسم في نفوسنا !
فالله عز وجل سميع، فإذا سألته يسمعك، إذا كنت في صلاتك فذكرته تبارك وتعالى يسمعك، إذا استنجدت بالله عز وجل يسمعك..

ما أحصي عدد ما أذكر **بقضية البصر** وأن الله عز وجل لا يحب أن يراك على موضع يكرهه،
والجانب الآخر؛ ألا يبعث شعور التفاؤل العظيم عندما يكبر الإنسان وفي صلاته وأن الله بصير وأنه يراني تبارك وتعالى في صلاتي؟! فأكون في قمة الطمأنينة والسكينة والارتياح لأن الله عز وجل سيثيبني على ذلك ؟!
كم البلاء الذي ينزاح عن النفس عندما يستحضر الانسان قول الله عز وجل (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ

الظَّالِمُونَ) ؟ عندما يستحضر الإنسان أن الله عز وجل ليس غافلاً عن كل الظلم الواقع في الأرض، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار..

واقرؤوا الآيات المتعلقة بها، من أعظم الآيات التي تبعث الطمأنينة في نفس الإنسان إلى مصير الظالمين.

لا نستطيع الاستطراد كثيراً عن هذا الجانب وهذا المجال، ولنقل كيف يعرفهم الله سبحانه وتعالى بنفسه في القرآن الكريم، هذا الأمر يستحق أن نتوقف معه وقفة تفصيلية كاملة..

كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف ربه تبارك وتعالى للخلق؟

كيف طبيعة الأحاديث التي تتناول جناب الرب سبحانه وتعالى؟

يتحمل فعلاً أن يقيم الإنسان محاضرة أو درساً مختصاً، بل من الممكن أن تقام دورة كاملة بما يتعلق بتعريف الوحي سبحانه وتعالى، خصوصاً إذا استحضرنا أن من أعظم مقاصد الدين وإنزال الوحي هو: **تعريف الخالق للخلق**.

لكن من الأشياء التي أنبه عليها، وهي ممارسة طريقة التمستها من نفسي حقيقة ووجدت أن فيها جانب جمالي عظيم، وهو: تتبع الأخبار والقصص المتعلقة بالواقع وبالتاريخ.

مثلاً، عندما أقرأ في كتاب البداية والنهاية للحافظ بن كثير او سير النبلاء للإمام الذهبي أو وفيات الأعيان لابن خلكان وكتب التواريخ والتراجم والسير.

من أكثر المواضع التي تطربني وتعجبني؛ هي تلك المواضع التي يستطيع الإنسان أن يتلمس في طياتها خفايا لطف الله سبحانه وتعالى، خفايا كمال علم الله سبحانه وتعالى وكمال قدرته تبارك وتعالى..

خذوا هاتين الالتقاطتين التاريخيتين العجيبتين مما مر علي:

- كنت أقرأ في كتاب ذم البغي لابن أبي الدنيا عليه رحمة الله تبارك وتعالى، وهو يحكي قصة لأحد يدعى وضاح بن خيثمة، ويبدو أن وضاح كان صاحب شرطة في وقت عمر بن عبد العزيز، فأمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وضاح بن خيثمة أن يطلق سراح كل من في الأسر ومن في السجن وأن يعفو عنهم، يقول :

" فأطلقتهم جميعاً إلا رجلا واحداً هو يزيد بن أبي مسلم، كان بيني وبين شيء (كخصومة أو عداوة) فخشيت لو

أطلقته أن يسعى في قتلي أو في التشفي أو الانتقام مني، فأطلقتهم كلهم عدا يزيد بن مسلم، ثم خرجت من الشام حتى التحقت بأفريقيا (محاولاً أن يفصل المسافة بينه وبين يزيد ليأمن جنابه فذهب إلى أفريقيا وهي تونس حالياً)

يقول : وبينما أنا في أفريقيا قيل لي قد أقبل يزيد بن أبي مسلم، فهربت، يقول : فأخرج رجالاً في طلبي، (اي أن يزيد أرسل رجالاً خلفه) يقول : ثم قُبِض علي وقدمت عليه، فلما رآني قال : وضاح (كأنه يستثبت أنه هو) فقلت له : وضاح، فيقول له يزيد بن مسلم (وتأملوا سبحان الله في العجب) : لطالما سألت الله أن يمكنني منك، فقال له وضاح بن خيثمة: وأنا لطالما سألت الله أن يعيذني من شرك، انظروا معي الآن كل طرف من الطرفين فقال له يزيد : والله ما عاذك.. والله لأقتلنك ثم والله لأقتلنك ثم والله لأقتلنك، والله لو سابقني ملك الموت لقبض روحك لسبقته.. لاحظوا الكبر! فقال بعدها يزيد بن مسلم : السيف والنطع، فوصع النطع وكُتّف الرجل ووقف على رأس وضاح بن خيثمة رجل بسيف مشروم، (انظر إلى تقدير الله عز وجل ولاحظ مجرمي ذلك الزمان عندهم من العبادة ما ليس موجوداً عند عباد زماننا)، يقول: فأقيمت الصلاة، فترك يزيد وضاح على حاله ثم ذهب إلى الصلاة، يقول راوي القصة : فلما سجد يزيد أخذته سيوف الجند، وقتلوه أثناء الصلاة ثم أتاني رجل ففك كتافي وقال انطلق.."

لاحظوا عندما تقرؤوا هذه القصة تجدوا أنها عجيبة جدًا، من جهة قدرة الله سبحانه وتعالى على إجابة الطرف الأول (لطالما سألت الله أن يمكنني منك) فمكنه الله سبحانه وتعالى منه، والطرف الثاني (لطالما سألت الله أن يعيذني من شرك) فعاذه الله سبحانه وتعالى منه!

- من القصص العجيبة ما ذكره الحميدي في جذوة المقتبس، وهو يذكر قصة لأحد وزراء أحد الأمراء، هذا الأمير اسمه المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، قصة عجيبة..

تقول القصة: أنه سجن رجلاً في ظلم استعظمه منه، وخرج للناس في مجلس العامة، فرفعت إليه رقعة لخطاب أمٍ تستعطف الأمير في ابنها، (خطاب شفاعة من الأم في ابنها المسجون قدمته للأمير لتطلب منه أن يطلق سراحه) يقول الأمير عندما قرأ الرقعة أنها ذكرتني والله به، والله لأقتلنه، ثم قلب الرقعة وأراد أن يكتب لصاحب الرقعة يصلب فكتب بدلاً منها يطلق، ثم ألقى الرقعة إلى الوزير، فالوزير لما قرأ الرقعة قال بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشرطة،

لاحظ الأمير أن توجيه الأمر ذهب إلى المسار الخطأ، فقال له: ما تصنع؟

فقال: آمر بإطلاقه، فغضب وقال: من أمر هذا؟

فقال: فأريته الرقعة، فنظر إليها فقال: وهمت والله، والله ليصلبن،

ثم شطب على يطلق، وأراد أن يكتب يصلب، فكتب يطلق للمرة الثانية،

فألقى الرقعة إليه، فكتب بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشرطة أن يطلق، فقال : ماذا فعلت؟

فأريته التوقيع، فغضب أشد من المرة الأولى، فقال والله ليصلبن،

ثم شطب عليه وأراد أن يكتب يصلب، فكتب يطلق،

لما وقعت الثالثة وغضب أشد غضباً وأراه الوزير الرقعة،

قال: نعم يطلق، على رغمي، فمن أراد الله إطلاقه لا أقدر على منعه..!

لاحظوا القصة وانظر تدخل العناية الإلهية ولطف الله سبحانه وتعالى..

هذا الملحظ يحتاج الإنسان أن يستحضره،

وأن يتطلب معرفة الله سبحانه وتعالى في كل شيء،

أن يتطلب معرفة الله عز وجل في هذا الكون أمامه:

(وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

يتأمل في دقة صنع الله عز وجل في هذا العالم وفي هذا الكون وفي خلقته،

يتأمل سنن الله تبارك وتعالى في البشر والناس والتاريخ،

يتأمل تعريف الله عز وجل في القرآن الكريم ،

وهي كما يقال مسارات متعددة وكثيرة.

ابن القيم يلخص لنا ما يتعلق **بدرجات المعرفة ودرجات الإيمان**، التي يمكن أن يحصلها الإنسان في باب معرفة الله سبحانه وتعالى، وأن العقل البشري الإنساني استطاع أن يترقى في هذه الأبواب لكن هناك جدار لا يستطيع أن يتجاوزه.

النبي صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن يوم القيامة، لما تأتي الخلائق في المقام المحمود الذي يُحمد له صلى الله عليه وسلم، مقام الشفاعة الكبرى، عندما يأتون آدم، ويأتون إبراهيم، ويأتون عيسى وموسى عليهم السلام، وكل منهم يعتذر بذنب أجراه في الدنيا، فيقولوا للنبي صلى الله عليه وسلم: اشفع لنا يا رسول الله،

فيقول : أنا لها انا لها،

ثم يذهب إلى عرش الرحمن فيسجد (تأملوا في الحديث العجيب)

فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : فيعلمني الله عز وجل محامد له لا أعلمها اليوم"

لأن هنالك أنماط من معرفة الله سبحانه وتعالى لا تستطيع العقول الإنسانية البشرية في هذه الحياة الدنيا أن تدركها، فيعلمها الله عز وجل لبعض الناس في أرض المحشر.

فهنالك مراتب للترقي..

لكن أحد التنبيهات التي مارسها **ابن القيم** يقول:

" وهذا المشهد أجل من أن يحيط به كتاب، أو يستوعبه خطاب، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة، تطلع إلى ما وراءه والله الموقف المعين. "

أتذكرون عندما تحدثنا عن ذوق أهل العلم، وحسن قدرة أهل العلم عن التعبير عن هذا الذوق؟!

أحياناً يبلغ بالعالم أن يتذوق معنىً لا يستطيع أن يبينه، أو يفصح أو يعبر عنه،

وخصوصاً القضية التي نتكلم عنها اليوم بالله تبارك وتعالى هي (السر الأعظم) هو شيء يندرج في هذا الباب..

يقول **ابن تيمية** : " وهذا أمر عظيم للغاية (وهو يشير إلى ما يتعلق بالسر الأعظم) فإذا كانت التوبة بهذه المنزلة كيف لا يكون صاحبها معظمٌ عند الله؟! "

ويقول **ابن القيم** : " ولهذا الفرح (فرح الله عز وجل) بتوبة عبده (حين يتوب، وهو ما يتعلق بالسر الأعظم) ولهذا الفرح سرٌ أكثر الخلق محجوبون عنه لا تبلغه عقولهم "

ويقول : " وأسرار هذا الوجه يضيق عنها القلب واللسان وعسى أن يجيئك في القسم الثاني من الكتاب ما تقر به عينك ان شاء الله. "

دعونا نذكر ما قاله **ابن القيم** في ما يتعلق بالسر الأعظم؛

يقول **ابن القيم** رحمه الله تعالى في كتاب مدارج السالكين، المجلد الأول في صفحة ٣٢٧ من طبعة دار الفؤاد

[مصدر الاقتباسات اللاحقة من كلام ابن القيم يمكن الحصول عليه من هنا : https://library.islamweb.net/ar/library/index.php?page=bookcontents&ID=96&idfrom=93&idto=93&flag=0&bk_no=119&ayano=0&surano=0&bookhad=0]

وهو كلام حسن جميل، ذكره في منزلة التوبة، يقول وهو يتحدث عن أسرار التوبة وفي ما سبق كان قد تحدث عن جمل عديدة من أسرار التوبة وفضائلها، فقال :

" ومنها : السر الأعظم ، الذي لا تقتحمه العبارة ، ولا تجسر عليه الإشارة ، ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رءوس الأشهاد "

يقول أن هذا الكلام صعب جدا أن يصيغه في كلام، ولكن سوف يقربه..

وسبب صعوبته أننا مع قدرتنا على شهوده وتذوقه، لكن تمرير هذا الشعور إلى غيرك قضية فيها قدر من الصعوبة.

يقول:

" بل شهدته **قلوب خواص العباد** ، **فازدادت به معرفة لربها ومحبة له** ، **وطمأنينةً به وشوقًا إليه** ، **ولهجا بذكره** ، **وشهودا لبره** ، **ولطفه وكرمه وإحسانه** ، **ومطالعة لسر العبودية** ، **وإشرافا على حقيقة الإلهية** ، وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

هذا الحديث الجميل، الذي يمر على أسماعنا كثيرا من غير أن نتوقف معه الوقفة الواجبة التي توقف معها ابن القيم رحمه الله..

المفترض عندما تقرأ هذا الحديث، يتفجر في نفسك سؤال ضخم جدا، وهو:

ما موجب فرحته عز وجل بتوبة الإنسان مثل هذا الفرح العظيم ؟

يعني لو أراد الإنسان أن يعبر عن فرح إنسان بأبلغ من التعبير الذي استخدمه النبي صلى صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث، لعجز عن ذلك ..!

تخيلوا يا جماعة، هل يوجد أو يتصور وجود فرح يقع للإنسان بسبب نجاته إلى درجة أن يجري على لسانه لفظا كفريًا؟
حقيقة الأمر الذي وقع من هذا الإنسان من شدة الفرح قال: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك"
هذه عبارة، لو قالها قائل بكامل عقله وبقصده، لكان كافرا..! بل كان ذلك من أعظم الكفر..!

النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يصور لك حالة مذهلة من فرح الإنسان، إلى درجة أن أغلق عليه عقله، فمن شدة الفرح قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك..

لماذا يضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المثل؟

ليقول لك: أرأيت هذا الفرح الواقع للآدمي؟
فالله عز وجل يفرح فرحًا أعظم منه.

لماذا يفرح الله عز وجل فرح أعظم من أعظم فرح يمكن أن يقع للإنسان ؟

الجواب: الله يفرح بتوبة الإنسان إليه،
والمفترض أن يتفجر في نفسنا سؤال ضخم:
ما هو الامتياز الموجود في العبد التائب إلى الله سبحانه وتعالى، الذي استحق لأجله أن يفرح الله كل هذا الفرح العظيم؟
وهو ما يسعى ابن القيم رحمه الله في تقديم الجواب عليه..

ولذلك، عندما نتحدث عن أن أهل العلم، عندهم من الذوق للنصوص وثبر الأغوار ما ليس عندنا..
وهذا نموذج أنا أزعم –وأتحدث عن نفسي– لا أحصي كثرة ما مر علي هذا الحديث، والله العظيم ما خطر مثل هذا السؤال في نفسي! فضلا أن أسعى في تقديم جواب له من عندي..

بعدما قرأت كلام ابن القيم رحمة الله عليه، حسن سبكه، حسن تصويره، شعرت –ولا أنسى هذه المشاعر– وأنا أقرأ هذا النص جاءت فترة من الفترات أزعجت من حولي..
أقول تعال يا فلان.. سوف أقرأ عليك كلام نفيس، وأقرأ عليه النص!
بل أذكر أن جاءت فترة من الفترات، صورت هذه الصفحات ووزعتها، فهذا كلام من أعظم ما يُقرأ..

يقول **ابن القيم**:

"وفي الحديث من قواعد العلم : أن اللفظ الذي يجري على لسان العبد خطأ من فرح شديد ، أو غيظ شديد ، ونحوه ، لا يؤاخذ به ، ولهذا لم يكن هذا كافرا بقوله : أنت عبدي وأنا ربك . "

وهذا استطراد من ابن القيم، فكان الحديث عن السر الأعظم، وهذه طريقة ابن تيمية وابن القيم رحمهم الله في الاستطراد، فيأخذك لقضية وفائدة فقهية، وهي: أن اللفظ الذي يجري على لسان العبد من غير قصد منه لا يكون محل مؤاخذه عليه، فهذا العبد جرى على لسانه لفظ كفر لم يحاسب عليه لأنه لم يكن قاصدا له.

ويقول:

" ومعلوم أن تأثير الغضب في عدم القصد يصل إلى هذه الحال، أو أعظم منها، فلا ينبغي مؤاخذة الغضبان بما صدر منه في حال شدة غضبه من نحو هذا الكلام، ولا يقع طلاقه بذلك، ولا ردته، وقد نص الإمام أحمد على تفسير الإغلاق في قوله صلى الله عليه وسلم "لا طلاق في إغلاق" بأنه الغضب، وفسره به غير واحد من الأئمة، وفسروه بالإكراه والجنون . (وفسره غيره بالإكراه وفسره غيره بالجنون) قال شيخنا: وهو يعم هذا كله، وهو من الغلق، لانغلاق قصد المتكلم عليه ، فكأنه لم ينفتح قلبه لمعنى ما قاله ."

هذا كله استطراد خفيف مارسه ابن القيم تعليقًا على قضية معينة، وفصّل في الكلام عن أحكام خطأ جريان ألفاظ من غير قصد من المتكلم، في مختلف مجالات الشريعة، في العقود، وفي ما يتعلق بأبواب الأنكحة والطلاق، وما يتعلق بقضية الردة والكفر. في كتابيه (زاد المعاد) و(أعلام الموقعين) يمكن مراجعة هذه القضية بالتفصيل ..

يقول:

" والقصد : أن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا **من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته** ، وما يليق بعز جلاله . "

ثم قال، تأملوا، قال كلمة عجيبة مؤلمة، وكأن ابن القيم يعاني شيئا من أهل زمانه، فيقول:

" وقد كان الأولى بنا طي الكلام فيه إلى ما هو اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم "

يقول بيني وبينكم، المفترض أن أطوي الكلام عن هذه القضية؛ لأن عقول أهل الزمان، أهل زمانه، لا تحتمل الكلام الذي أريد أن أعبر عنه..

يقول:

" ونهاية أقدامهم من المعرفة ، وضعف عقولهم عن احتماله.

غير أنا نعلم أن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تجارها ، ومن هو عارف بقدرها ، وإن وقعت في الطريق بيد من ليس عارفا بها ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ."

وأسأل الله أن يكون هذا المجلس المبارك من المجالس التي ساقها الله عز وجل، وساق ابن القيم للتبشير بمثل هذه المضامين والمعاني..

ابن القيم، وهذا بالمناسبة في كتابه الآخر (طريق الهجرتين)، تكلم كذلك عن **السر الأعظم** بنمط وأسلوب مغاير عن ما كتب في مدارج السالكين، لكن أحظى البنائين في نفسي هو الكلام الموجود في مدارج السالكين،

ولكن من التعليقات اللطيفة وهو يمهد المسألة ويُحول عليها، قال العبارة الآتية، قال وهو يتكلم عن هذا الفرح،

قال:

" وتحت هذا سر عظيم **يختص الله بفهمه من يشاء..**

فإن كنت ممكن غلظ حجابه وكسفت نفسه وطباعه فعليك بوادي الحمقى "

يقول انظر أقولك كلام معين، لكن إذا كنت غليظ النفس كثيف الطباع، وهم تقريبا ست صفحات، اقلبهم وانتقل لما بعدها؛ لأنك ما عبر عنه في وادي الحمقى..

ثم قال ابن القيم عليه رحمة الله وهو يريد أن يبين ما يتعلق بهذه القضية،

واستحضروا وأنتم تقرأون هذا الكلام أن غرض ابن القيم رحمه الله هو: الإبانة على لغز هذا السؤال العظيم الضخم الكبير –والذي من المفترض أن يكون ضاغطًا علينا ونحن نقرأ حديث النبي صلى الله عليه وسلم– :

لماذا يفرح الله عز وجل بتوبة الإنسان ؟

بالله عليكم، عندما ترى من مقامات العبودية مقامات متعددة وكثيرة جدا، ولكن لماذا عبودية التوبة ؟

لماذا **عبودية التوبة** استحقت هذا الفرح العظيم من الرب تبارك وتعالى؟

فرحًا أعظم من أي فرح يمكن للعقل البشري للإنسان أن يتأمل فيه أو يتصوره أو يتخيله !

فيقول **ابن القيم** مفتتحًا الكلام؛ حتى تتضح خارطة البحث وهيكلية شرف الإنسان، يفتح الكلام في **بيان شرف الإنسان وموقع هذا الإنسان من الله تعالى**، يقول:

" فاعلم أن الله سبحانه **اختص نوع من الإنسان من بين خلقه**، بأن كرمه وفضله وشرفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له "

انظر لهذه لهذا الالتقاط الجميل البديع!

يقول ابن القيم، أن الله قد خلق كل المخلوقات من أجل الإنسان، وخلق الإنسان لأجله هو سبحانه وتعالى..

وقال:

" **وخصه من معرفته ومحبته وقربه، وأكرمه بما لم يعطيه غيره**، وسخر له ما في السماوات والأرض وما بينهما، حتى ملائكته الذين هم بقربه، واستخدمهم له، وجعلهم حفظةً له؛ في منامه ويقظته وظعنه وإقامته، **وأنزل إليه وعليه كتبه**"

يتحدث ابن القيم عن **مقامات الشرف الإنساني البشري**، فخلق الله الملائكة وجعلهم خدمةً البشر؛
ولاحظوا الالتقاط الجميل، يقول ابن القيم: " وأنزل إليه وعليه كتبه "
أي من كمال شرف الإنسان عند الله عز وجل أن ليس فقط أنزل الله عز وجل كتبه إليهم، بل أنزل كتبه عليهم وإليهم؛ أي **اصطفى من الناس أناس جعلهم أنبياء ورسلا**؛ يشرفهم عن بقية المخلوقات،
ليس بأن يبلغهم كتابه بل يبلغونه ثم يبلغونه غيرهم.

يقول:

" وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم والأولياء والخواص والأحباء، وجعلهم معدن أسراره وحكمته وموضع حبه وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر والثواب والعقاب مداره على النوع الإنساني، فإنه خلاصة الخلق وهو المقصود بالأمر والنهي وعليه الثواب والعقاب "

يقول:

"**فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات** ، وقد خلق أباه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات ، وطرد إبليس عن قربه ، وأبعده عن

بابه ، إذ لم يسجد له مع الساجدين ، واتخذه عدوا له "

يشير ابن القيم إلى الفقرة الأخرى في هيكلة البحث.

حيث أن المقام الأول: **استحضر شرف الإنسان وعظمه هذا المخلوق من الخالق تبارك وتعالى،**

إلى درجة أن أحد أصفياء الله عز وجل، الذي اصطفاه على الجن(إبليس) لما كان متعبداً لله عز وجل، لما امتنع أن يُشرف الإنسان التشريف الذي يليق بالإنسان وأمره بالسجود له، أبعده الله عز وجل ولعنه وطرده من رحمته سبحانه، وجعله عدوا له سبحانه .

يقول ابن القيم:

" **فالمؤمن من نوع الإنسان خير البرية على الإطلاق ، وخيرة الله من العالمين** ، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه ، وليتواتر إحسانه إليه ، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته ، ولم يخطر على باله ولم يشعر به ، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة ، التي لا تنال إلا بمحبته ، ولا تنال محبته إلا بطاعته ، وإيثاره على ما سواه ، فاتخذه (يعني اتخذ الله عزّ وجل الإنسان) محبوبا له ، وأعد له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه (فمن حكمة الله في خلق الإنسان وتفضيله وتشريفه أن الله يحب أن يُحسن إليه، فخلقه ليُحسن إليه سبحانه وهو سبحانه -كما ذكر ابن القيم- محب غني قادر جواد)

وعهد إليه عهدا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه ، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه ، ويزيده محبة له وكرامة عليه ، وما يبعده منه ويسخطه عليه ، ويسقطه من عينه ."

(أي حتى بيّن الله سبحانه وتعالى **كمال التشريعات**، التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يحظى برحمة الله تعالى وفضله وإحسانه ونعمته وجوده سبحانه وتعالى)

ثم يقول ابن القيم:

" **وللمحبوب عدو** "

يذكرك بالمعنى الذي أشار له منذ قليل، فتشريف الله تعالى للإنسان بأنه لعن وطرد عدوه -سبحانه وتعالى-، لأجل هذا الإنسان..

ثم يقول ابن القيم وهو يذكرك بقصة هذا العدو:

"وللمحبوب عدو هو أبغض خلقه إليه، قد جاهره بالعداوة وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له دون وليهم ومعبودهم الحق، واستقطع عباده، واتخذ منهم حزبًا ظاهروه ووالوه على ربهم، وكانوا أعداء له مع هذا العدو، يدعون إلى سخطه ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذى، ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه، فعرفه بهذا العدو"

"فعرفه بهذا العدو":

يعني من كمال بر الله عز وجل وإحسانه للإنسان، أنه لم يتركه دون أن يعرّفه بهذه الفظاعات التي جرت من هذا العدو دون التذكير به، فقد قال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، فالعاقل يقول أن مجرد بيان عداوة الشيطان للإنسان كافية في أن يُتَّخذ عدوًا، ولكن من كمال رحمة الله عز وجل أن يقول لك:

أن **الشيطان عدو لك وأنا آمرك أن تتخذ هذا الشيطان –الذي هو عدو لك– عدوًا!**

يكمل ابن القيم:

" فعرفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم وما لهم ، وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم . "

فقد بيّنَ لك أنه عدو، وبيّن لك طرائق هذا العدو، وكيف يدخل عليك الشيطان، وبيّن لك تفاصيل ذلك حتى لا تخرج عبودية الله –عز وجل– الموجبة لفضله وإحسانه ونعمته عليك!

قال:

" وأخبره في عهده أنه أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبقت رحمته غضبه ، وحلمه عقوبته ، وعفوه مؤاخذته ، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر ، وأن الفضل كله بيده ، والخير كله منه ، والجود كله له "

والذي يستحضر مشاهد الرحمة الإلهية يجدها مظاهر مذهلة في الأحاديث النبوية، فحديث النبي صلى الله عليه وسلم –الذي أشار إليه–: {إنَّ اللَّهَ كتبَ كتابًا قبلَ أن يَخلُقَ الخلقَ: إنَّ رحمتي سبَقت غضَبي ، فَهوَ عندَهُ فوقَ العرشِ}،

الذي يستحضر حديث النبي صلى الله عليه وسلم: {خَلقَ اللهُ مِائةَ رحمةٍ، فَوضَعَ رحمةً واحِدةً بين خلقِهِ، يَتراحَمُونَ بِها، وخَبَّأَ عِندَه مِائةً واحدةً}

حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تطأه..
فكل مظاهر الإحسان والرحمة الموجودة في هذه الحياة الدنيا هي جزء واحد من مئة رحمة يرحم الله عز وجل بها عبادَه المؤمنين يوم القيامة، ويقول أنه سيرُدّ سبحانه هذه الرحمة التي في الدنيا إلى التسعة وتسعين رحمة فيرحم بها عبادَه يوم القيامة.

ومن أجمل الأحاديث التي مرتْ عليّ في الإبانة عن عظيم رحمة الله عز وجل/ هو حديث أن الله يأمر بأربعة فيخرجون من النار -تخيل هذا الحديث المذهل-، يأمر الله بأربعة فيخرجون من النار، فيخاطبهم الله عز وجل، ثم يأمر الله عز وجل بهم أن يُعادوا إلى النار، -تخيلوا المشهد العجيب-!
أناس يأمر الله عز وجل بإخراجهم من النار يوم القيامة، ثم يأمر الله عز وجل بإعادتهم مرة أخرى!
حاسبهم الله عز وجل فظهر أنهم غير مستحقين للرحمة، وبينما هم يُقادون إلى النار، التفتَ أحدهم وقال: ما كان ظني فيك يا رب أن تعيدني إليها بعد إذ أخرجتني منها (كنت أظن أني لما خرجت منها نجوت، وأنك لن تأمر بإعادتي إلى النار بعد إخراجي منها)، فيرحمه الله عز وجل فيدخله الجنة!
أي لو حاكمهم وحاسبهم الله عز وجل بمقام العدل لكانوا مستحقين أن يعودوا إلى النار، لكن رحمة الله سبقت فرحمه، وكثير من الأحاديث تتحدث عن ذلك.

يكمل ابن القيم -وهذا ملحظ عظيم في رحمة الله عز وجل وفضله وإحسانه-:
" وأحب ما إليه أن يجود على عباده ويوسعهم فضلا ، ويغمرهم إحسانا وجودا ، ويتم عليهم نعمته ، ويضاعف لديهم منته ، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه ."
فمن أعظم مقامات المحبة لله **أنه يحب الإحسان إلى الخلق**.

يقول:
" فهو الجواد لذاته ، وجود كل جواد خلقه الله ، ويخلقه أبدا أقل من ذرةٍ بالقياس إلى جوده ، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو ، وجود كل جواد فمن جوده ، ومحبته للجود والإعطاء والإحسان ، والبر والإنعام والإفضال فوق ما

يخطر ببال الخلق ، أو يدور في أوهامهم ، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه ويأخذه ، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدرًا "

وهذه لقطة في غاية العجب!

ففرح الله بالعطاء أعظم بما لا يُقاس إنسانيًا وبشريًّا من فرح الآخذ لعطاء الله سبحانه وتعالى.

قال:

"أعظم ما كان قدرا ، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها ، فما الظن بفرح المعطَى؟ "

فتخيل أن الإنسان محتاج جدًا إلى العطية ومفتقر إليها جدًّا، فما الطن بفرح المعطى في هذه الحالة؟!

يقول:

" ففرح المعطي سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه ، ولله المثل الأعلى ، إذ هذا شأن الجواد من الخلق ، فإنه يحصل له من الفرح والسرور ، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده فوق ما يحصل لمن يعطيه"

يقول لك أن هذا المشهد لا يدركه كثير من الناس عن كثير من الكرماء، فهناك أناس معيَّنون من البشر يكون فرحهم بالعطاء أبلغ من فرح الآخذ لذلك العطاء.

قال:

"ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه عن لذة المعطي وابتهاجه وسروره هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه"

هنا يريد أن يقول لك: هل رأيت هذا المشهد الموجود عند البشر والناس؟

لكن استحضرْ أن هذا مشهد عطاء الفقير، ومع ذلك يوجد من هؤلاء الفقراء مَن يفرح مثل هذا الفرح الشديد، مع كونه فقيرًا إلى ما أعطاه.

يقول:

" هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه ، وعدم وثوقه باستخلاف مثله ، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه ، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه ، ونفسه قد طبعت على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله ؟ "

الله عز وجل يُنزَه سبحانه وتعالى عن كل هذه الاعتبارات، فلا يُتصوَّر منه سبحانه وتعالى إلا أن يكون **فرحه بالعطاء أبلغ بما لا يِقاس من فرح الآخذ لذلك العطاء.**

قال:

" لو أن أهل سماواته وأرضه ، وأول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، ورطبهم ويابسهم ، قاموا في صعيد واحد فسألوه ، فأعطى كل واحد ما سأله ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة .

وهو الجواد لذاته.."

لاحظوا الآن الإثارة لمعنى إيماني في باب معرفة الله عز وجل قد يغفل عنه كثير من الناس..

يقول:

"وهو الجواد لذاته ، كما أنه الحي لذاته ، العليم لذاته ، السميع البصير لذاته "

يقول أننا نحن لا نستطيع أن نتعقّل كمال الله عز وجل إلا بتعقُّل كمال حياته وعلمه وقدرته وإرادته –سبحانه وتعالى– وسمعه وبصره؛ فينبهك ابن القيم ويقول لك استحضِرْ ذات المعنى، (الكمال وعدم تصور الرب تبارك وتعالى إلا أن يكون منزهًا عن النقائص في هذا الأبواب، بحيث لا يعزب عن علمه شيء، ولا يعزب عن قدرته شيء) استحضرْه في باب الكرم والجود؛ فالله عز وجل **مستحق أن يكون أكرم الأكرمين لذاته تبارك وتعالى.**

يقول:

" فجوده العالي من لوازم ذاته ، والعفو أحب إليه من الانتقام ، والرحمة أحب إليه من العقوبة ، والفضل أحب إليه من العدل ، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه .. "

الآن، بدأ يحاول أن يكشف ما يتعلق بالسر، الذي بناه لك الآن؛

أن هذا الإنسان مقامه عظيم عند الله سبحانه وتعالى،

وخلق العالم الكلي بكل ما فيه لأجل هذا الإنسان،

وخلق هذا الإنسان له سبحانه وتعالى، كرّمه، وأعطاه،

وأبعد عدوه عنه سبحانه وتعالى، وبيّن خطورة هذا العدو له،
وبيّن أن الله عز وجل من حكمته في خلق هذا الإنسان؛
أنه يريد أن تتجلى مظاهر جوده وإحسانه وفضله وكرمه في هذا الإنسان.

حسنًا... ما الذي حصل بعد ذلك؟!
ما الذي حصل بعد كل هذه القصة؟!
ما الذي حصل من هذا الإنسان؟!

يقول ابن القيم:
" فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه ، وأعد له أنواع كرامته ، وفضله على غيره ، وجعله محل معرفته ، وأنزل إليه كتابه ، وأرسل إليه رسوله ، واعتنى بأمره ولم يهمله ، ولم يتركه سدى ، فتعرض لغضبه "
فتعرّض لغضبه، فبدل أن يقابل هذا الإنسان الفضل العظيم من الله عز وجل بمزيد من العبودية والتعلق والمحبة لله سبحانه وتعالى، الذي وقع فيه الإنسان، هو أنه وقع في الذنب والمعصية الموجبة لغضب الله سبحانه وتعالى!
فما الإشكال هنا؟!
الذي أراد ابن القيم أن ينبه عليه أن: الله يحب الجود لذاته سبحانه وتعالى، يحب أن يحسن إلى الإنسان حسنًا، الآن هذا الإنسان بذنبه ومعصيته منع الرب تبارك وتعالى من جريان جوده وإحسانه عليه بسبب ذنبه ومعصيته.

يقول:
" فتعرض لغضبه ، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه (أبَقَ منه أي شرد من الله عز وجل)،
ووالى عدوه (أي المشكلة أنه والَى عدوه، والى إبليس، والى الشيطان) وظاهره عليه ، وتحيز إليه ، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه ، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر.
(الأصل أن رحمة الله عز وجل سبقت غضبه، الآن بسبب الظلم والمعصية، استدعيت من الجواد الكريم خلاف ما هو عليه! خلاف ما يحبه الله سبحانه وتعالى من الجود والإحسان والعطاء والبذل!)

وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه ، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه ، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه ، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه ، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان .

فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة ، إذ انقلب آبقا شاردا ، رادا لكرامته ، مائلا عنه إلى عدوه ، مع شدة حاجته إليه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين ."

هذه الحين، اللحظة التي الآن يتكشف بما يتعلق بسر فرح الله عز وجل بهذا العبد، كرمه ويحب الله عز وجل أن يكرمه، ثم أبق من الله عز وجل وشرد منه..

الله عز وجل يحب أن يكرمه، لكن الآن قام مانع من بذل الإحسان والبر إليه، وهذا الإنسان ها الحين التحق بالعدو ومنع فضل الله عليه واحسانه مع عظيم حاجة الإنسان وعدم استغناءه عن ربه سبحانه طرفة عين!

يقول:

"فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته ، ناسيا لسيده "

شوفوا ها الحين حالة الحقارة التي وصل إليها الإنسان، ليس فقط أنه صار شريكا لإبليس، لا صار إبليس أشبه السيد له الذي يخدم عنده!

" منهمكا في موافقة عدوه ، قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله إذ عرضت له فكرة فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه ، وعلم أنه لا بد له منه ، وأن مصيره إليه ، وعرضه عليه ، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قدم به عليه على أسوأ الأحوال "

الآن في حال الإنسان الاستغراق في الذنب والمعصية عرضت له فكرة، هذه الفكرة هي المحرك لدافع له لأحداث التوبة، تذكر إحسان الله عز وجل إليه ، تذكر بر الله سبحانه وتعالى له سبحانه وتعالى، تذكر أنه ترى مصيره وأيلولته لله سبحانه وتعالى إما أن يقدم إليه جل وعلا باختياره أو سيقدم عليه سبحانه وتعالى مكرها على أسوء حال.

يقول:

"ففر إلى سيده من بلد عدوه، وجد في الهرب إليه "

لما تذكر الآن هذا المشهد، انقدح في نفسه مشاعر التوبة ففر من أرض إبليس طالبا الله سبحانه وتعالى

" حتى وصل إلى بابه ، فوضع خده على عتبة بابه ، وتوسد ثرى أعتابه ، متذللا متضرعا ، خاشعا باكيا آسفا ، يتملق سيده ويسترحمه ، ويستعطفه ويعتذر إليه ، قد ألقى بيده إليه ، واستسلم له وأعطاه قياده ، وألقى إليه زمامه ، فعلم سيده ما في قلبه ، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه "

هو الحين يفسر لك، **لماذا يفرح الله عز وجل ؟!**

لأن الله يريد أن يحسن إليه، الآن العبد قد أزال المانع، فيفرح الله عز وجل فرحا عظيما جدًا بأن سيفضل على هذا العبد ، سينعم عليه..

يقول:

" فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه ، ومكان الشدة عليه رحمة به ، وأبدله بالعقوبة عفوا ، وبالمنع عطاء ، وبالمؤاخذة حلما ، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله ، وما هو موجب أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، فكيف يكون فرح سيده به ؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعا واختيارا ، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه ، وفتح طريق البر والإحسان والجود ، التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة ؟ "

ثم يعلق بهذا التعليق النفيس ضاربًا مثل ليقرب مدلول هذا الكلام وعظمته من عقولنا، فيقول:

" وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين أنه حصل له شرود وإباق من سيده (بعض العباد ، بعض الصوف وبعض العارفين حصل له شرود عن الله عز وجل) فرأى في بعض السكك بابا قد فتح (الآن هذا العبد يمشي في أحد الطرق فشاهد اللقطة العجيبة الآتية شهد بابا في أحد السكك قد فتح) وخرج منه صبي يستغيث ويبكي ، وأمه خلفه تطرده ، حتى خرج ، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت ، فذهب الصبي غير بعيد ، ثم وقف مفكرا ، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه ، ولا من يئويه غير والدته ، فرجع مكسور القلب حزينا ، فوجد الباب مرتجا ، فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام ، فخرجت أمه ، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه ، والتزمته تقبله وتبكي ، وتقول : يا ولدي ، أين تذهب عني ؟ ومن يئويك سواي ؟ ألم أقل لك : لا تخالفني ، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك ، والشفقة عليك ، وإرادتي الخير لك ؟ ثم أخذته ودخلت . " (الالتقاطة تقرب مدلول الكلام ومدلولها واضح..)

فتأمل قول الأم: لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة،

وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها"

ألا تفرح الأم ذلك الفرح الشديد لما تشوف الولد؟

ونحن ندرك في قصص وحكاي الدنيا تجد إنسانا من أعظم العاقِّين، ومع ذلك إذا دخل على أمه باكيا متضرعا يطلب منها العفو، تجد أن الأم تستقبل هذا الولد وتتمنى أن يترك موجب العقوق، لتبذل له المحبة التي جبلت عليها، فيقول لك الآن ابن القيم: هل شاهدت هذه اللقطة الموجودة من مشهد الأمهات المتعلقة بالحياة الدنيا ؟

استحضره، واستحضر قول النبي صلى الله عليه وسلم كما استحضرنا : لله أفرح بتوبة عبده، لله أرحم بعباده من هذه بولدها..أين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله؟

" فتأمل قول الأم : لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة.

وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء ؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه ، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة ، بعد اليأس منها.

ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة ، وتدق عن إدراكه الأذهان . "

هناك شيء في نفسي أبغي أمره إليك لكن لا تواتيني عليه العبارة، لا يوجد في كلام البشر شيء أستطيع به أبين لك عن الذوق الذي حدث في نفسي وأنا اطالع وأقرأ هذا الحديث..!

"وإياك وطريقة التعطيل والتمثيل ، فإن كلا منهما منزل ذميم ، ومرتع على علاته وخيم ، ولا يحل لأحدهما أن يجد روائح هذا الأمر ونفسه "

وهذا ترى معنًى مفصل في طريق الهجرتين وهو معنًا من المهم استحضاره عندما تحدث الجدالات في الباب المتعلق بمعرفة الله عز وجل واثبات المعاني الكمالية لله عز وجل مخالفة لطريقة أهل التعطيل وأهل التمثيل، بعض الناس يتزجر من هذه المعاني، هنالك طوائف تنتسب للحالة الإسلامية لا تؤمن أن الله يفرح حقيقة، وهذا ما يقوله ابن القيم.. ولذلك، يقول ترى لا يحدث لهم وشاهد الذوق من هذا الحديث ما يتحصل عليه السني الذي يؤمن بظواهر هذه المقولات عن النبي صلى الله عليه وسلم وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال إن الله يفرح با فرحه أعظم من هذا

الإنسان فإن ذلك يجب أن يثبت لله حقيقة واعتقادنا بهذا الفرح لله سبحانه وتعالى يثور من معاني الإيمان في نفوسنا ما لا يمكن أن يتحصل عليه إنسان لا يعتقد إن الله عز وجل يرحم على الحقيقة ويفرح على الحقيقة، يبش لعباده المؤمنين على الحقيقة.

فيقول:

" لأن زكام التعطيل والتمثيل مفسد لحاسة الشم ، كما هو مفسد لحاسة الذوق ، فلا يذوق طعم الإيمان ، ولا يجد ريحه ، والمحروم كل المحروم من عرض عليه الغنى والخير فلم يقبله ، فلا مانع لما أعطى الله ، ولا معطي لما منع ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . "

وأنا أزعم أن هذا الكلام من عظيم الفضل الذي امتن الله به على ابن القيم وأنه استطاع به ابن القيم أن يوصل شيئا من المعمى الذي قدح في نفسه إلينا

فصل هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهي بالإحسان والجود والبر

وأما إن لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبودا فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه وإنما يشهده خواص المحبين

نختم درسنا بهذه العبارة العجيبة الجميلة **لابن القيم** رحمه الله تعالى وهي تصلح خاتمة لهذا الدرس:

قال ابن القيم – رحمه الله – ((الفوائد)) (118 :

" إِذا اسْتغنى النَّاس بالدنيا فاستغن أَنْت بِاللَّه،

وَإِذا فرحوا بالدنيا فافرح أَنْت بِاللَّه،

وَإِذا أنسوا بأحبابهم فَاجْعَلْ أنسك بِاللَّه،

وَإِذا تعرفوا إِلَى مُلُوكهمْ وكبرائهم وتقربوا إِلَيْهِم لينالوا بهم الْعِزَّة والرفعة فتعرف أَنْت إِلَى الله ،وتودد إِلَيْهِ، تنَلْ بذلك غَايَة الْعِزّ والرفعة "

نسأل الله جل وعلا أن ينفعنا بما سمعنا وما ذكرنا ويرزقنا توبة تفرحه حل وعلا ويديم عطائه وفضله وإحسانه علينا،

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد